

الفصل الأول:

الحاكم الإله والشعب العابد





**يزخر** التاريخ المصري عبر عصوره السحيقة بعدد لا حصر له من الوقفات الشعبية ضد نظام الحكم الفاسد فيه. فإذا كان المصريون قد ثاروا في ٢٥ يناير ضد نظام مبارك عندما تزوج رأس المال بالسلطة، فقد هبوا ثائرين للخروج على تقاليد الخضوع للهيئة الحاكمة والنخب الإقطاعية التي استغلت علاقتها بالسلطة؛ فتقاسمت مع الحكام خيرات البلاد، وانطلقت الجماهير الغاضبة تحطم بلا تمييز كل كيان رئاسي، واقتحمت العصابات المسلحة الأماكن المقدسة، حتى الأهرام لم تمنعهم قداستها من التمرد، فاقترحوا على الموتى سكونهم، وسلبوا الراقدين في سبات الأبدية ثرواتهم وأصبح الأحياء الجياع أولى بها من الذين ماتوا تحمة وشبعًا، لقد ثار الفراعنة عندما تحولت مصر إلى أقلية مسيطرة تنعم بالرفاهية والسلطة وتعيش على أمجاد العابرين وتتقاعس عن تحمل مسؤوليتها نحو الوطن والمواطن وأغلبية مغلوطة على أمرها غريبة في وطنها تطحنها الحاجة والفقر، وإذا كان التاريخ قد أكد لنا أن الحاكم آنذاك لم يكن شخصًا عاديًا بقدر ما كان إلهًا مقدسًا، فإنها لم تكن ثورة شعب ضد حاكمه بقدر ما كانت ثورة شعب ضد آلهته. فمن المعروف مدى خشوع المصري القديم لآلهته فقد كان الدين ولا يزال وسيظل أكبر قوة تؤثر في حياة الإنسان المصري. والتساؤل الذي يطرح نفسه بقوة هل كانت العلاقة بين الملك والشعب قديمًا علاقة دينية سياسية أم أنها علاقة ذات توجه مختلف؟ فقد استطاع مؤسسو الأسرة

المصرية الأولى أن يكونوا مصر حكومة مركزية قوية على رأسها الملك المؤله الذي جمع في يديه كل السلطات، حكومة مركزية كان الملك محورها بل الروح التي تبعث الحياة في الدولة وكل ما يحدث فيها من وحيه ومن فيض بركاته، فهو الإله العظيم حور الذي هو في نظر رعاياه إله حي على شكل إنسان، له على شعبه مهابة الإله وتقديره، ومن هنا كان الأساس السياسي والاجتماعي الذي قامت عليه الحضارة المصرية هو التأكيد بأن مصر دولة يحكمها إله .. وفي ظل هذا الإطار الطبيعي يصبح التنظيم الاجتماعي شرطاً أساسياً للحياة ويتحتم على الجميع أن يتنازل طواعية عن كثير من حرياته ليخضع لسلطة توزع العدل والماء بين الجميع وبذلك لا تكون الطبيعة وحدها سيدة الفلاح (النهر) وإنما بين الاثنين يضيف الري سيداً آخر هو الحاكم فهنا يصبح الحكم والحاكم وسيطاً بين الإنسان والبيئة؛ ومن ثم فقد أصبح الفرعون ضلعاً أساسياً في مثلث الإنتاج إلى جانب الضلعين الطبيعيين الماء والشمس، ولم تكن أولوية الحاكم محض صدفة ولكن لكونه ضابط النهر وبصفته الملك المهندس وبطريقة ما صانع المطر.

ومن ثم فإن العلاقة الاقتصادية بين الملك والشعب قد بدأت قبل العلاقة الدينية، فقد جاءت ثورة الجياع الأولى في مصر لأسباب تتعلق بجفاف النهر وسطوة حكام الأقاليم وإذا كان العقد الاجتماعي الكائن بين الملك والشعب (الدستور) قد نقضه الملك عندما تسبب في مجاعة شعبه فقد نقضه الشعب أيضاً عندما ثار على الملك وتمرد عليه. ففي أواخر عهد الأسرة السادسة أنشأ حكام الأقاليم والكهنة نظاماً أشبه بنظام الإقطاع الأوروبي حيث حدوا من نفوذ الملك لصالحهم واستغلوا السلطة، فكثرت المظالم وعمت الفوضى، وسقط العدل فانفرط الجياع كالمسبحة، حتى فاض الكيل على المصريين فقاموا بالثورة كرد فعل عنيف للظلم الاجتماعي الذي عرفته مصر في أواخر الدولة القديمة عندما تحول المجتمع إلى حاكم إله وشعب عابد .. وليس اليوم عن البارحة بعيد ...